المبحث الثاني
الحديث وعلومه

الحديث وعلومه

تمهيد :

صُنف عبد الله بن عباس ضمن الصحابة المكثرين من رواية الحديث [١] ، مع أنه لم يصحب النبي ﷺ مدة طويلة ، لأنه عليه الصلاة والسلام وافته المنية ولعبد الله بن عباس نحو ثلاث عشرة سنة .

ولقد حفظ لنا أرباب التراجم تفاصيل طريقة ابن عباس الفريدة في الدرس الحديثي ، ونقلوا لنا ما كابده في تحصيل العلم من مشاق ، حتى بلغ فيه شأوا بعيدا ، يروي ابن سعد بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال : «لما قبض رسول الله ﷺ ، قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم اليوم كثير ، قال : فقال : واعجبا لك يابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك ، وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟ قال : فترك ذلك ، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ الحديث ، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل ، فآتي بابه وهو قائل [٢] ، فأتوسد ردائي على بابه ، تسفي الريح علي التراب ، فيخرج ، فيراني ، فيقول لي : يا ابن عم رسول الله ، ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فآتيك؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث» ثم قال ابن عباس : «فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد

---

(١) نقل الذهبي في آخر ترجمته أن «مسنده ألف وستمائة وستون حديثا . وله من ذلك في الصحيحين خمسة وسبعون . وتفرد البخاري له بمائة وعشرين حديثا ، وتفرد مسلم بتسعة أحاديث» .

(٢) أي : نائم وقت الظهيرة .

اجتمع الناس حولي ليسألوني ، فيقول : هذا الفتى كان أعقل مني» [١] .

وجل الصحابة الذين أخذ عنهم ابن عباس الحديث هم من الأنصار [٢] ، من بينهم أبي بن كعب ﷺ [٣] ، وشوهد ومعه «ألواح يكتب عليها عن أبي رافع [٤] شيئا من فعل رسول الله ﷺ» [٥] .

وقيل لابن عباس : «أنى أصبت هذ العلم؟! قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول» [٦] .

وكان مع ابن عباس شخص آخر ، توفي في نفس السنة التي مات فيها ابن عباس [٧] . وهو من القصاص الذين يفخر بهم أهل مكة على الناس ، أعني أبا عاصم المكي عبيد بن عمير بن قتادة ، قاص أهل مكة . قال فيه ابن سعد : « ...كان ثقة كثير الحديث» [٨] .

(١) طبقات ابن سعد : ٢/ ٢٧ (ذكر من كان يفتي بالمدينة ويقتدى به) .

(٢،٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٢٧ .

(٤) أبو رافع القبطي ، مولى رسول الله ﷺ ... ينظر تهذيب التهذيب : ٤/ ٥٢٠ (في الكنى) .

(٥) طبقات ابن سعد : ٢/ ٣٠ .

(٦) البداية والنهاية : ٨/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

(٧) وقيل تاريخ وفاته غير ذلك . ينظر سير أعلام النبلاء : ٥/ ١٧٢ .

(٨) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٣٠ ، رقم ١٥٢٥ .

المطلب الأول

طبقة كبار أصحاب ابن عباس

لقد برز بعد ابن عباس ، وعبيد بن عمير في مكة علماء أكثروا من رواية الحديث عنهما وعن غيرهما . منهم مجاهد بن جبر (ت١٠٣هـ) ، وعطاء بن أبي رباح (ت١١٤هـ) ، ومقسم بن بجرة صاحب عبد الله بن عباس (ت١٠١هـ) ، وهو كثير الحديث ، إلا أن بعض العلماء ضعفوه كابن سعد ، وابن حزم ، ووثقه الدارقطني [١] ، والعجلي [٢] ، ويعقوب بن سفيان الفسوي . وذكره البخاري في الضعفاء ، ولم يذكر فيه قدحا [٣] .

ومنهم عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة (ت١١٧هـ) ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باسط بن أبي حميضة (ت١١٨هـ) ، وصفه ابن سعد بأنه «ثقة كثير الحديث» [٤] ، وقيس بن سعد المكي؛ خلف عطاء في مجلسه ، لكنه لم يعمر طويلا ، مات سنة (١١٩هـ) . وكان قليل الحديث [٥] ، وأبو عبد الله عكرمة البربري ، مولى ابن عباس .

(١) ينظر : تهذيب التهذيب : ٤/ ١٤٧ .

(٢) تاريخ الثقات للعجلي بترتيب الهيثمي ، وتضمينات ابن حجر ، ص : ٤٣٨ رقم ١٦٢٧ .

(٣) قلت : روى له البخاري في صحيحه . فهذا توثيق له .

(٤) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٣٦ رقم ١٥٤٠ .

(٥) ينظر : تهذيب التهذيب : ٣/ ٤٤٩ .

المطلب الثاني
مميزات علماء الحديث في هذه الطبقة

١ ـ علماء هذه الطبقة بمكة ، وعلى غرار علماء البلدان الإسلامية الأخرى ، كانوا لا يحرصون على إسناد الأحاديث إلى لمن رووها عنهم ، بل كانوا في أحيان كثيرة يرفعونها إلى رسول الله ﷺ دون ذكر الواسطة .

سلك هذا المنهج مجاهد وعطاء وغيرهما ، ولم ينكر العلماء عليهم ذلك . إلا أنهم كانوا يفضلون مرسلات محدث على آخر . كانوا ـ مثلا ـ يفضلون مرسلات مجاهد على مرسلات عطاء ؛ لأن الاستقراء أكد لهم أن مجاهدا كان لا يرسل إلا عن صحابي ، فأمن بذلك الضعف ، لأن الصحابي لا يسأل عن عدالته . أما عطاء فإنه كان يرسل عن الصحابي وعن غير الصحابي . قال يحيى بن سعيد القطان : «مرسلات مجاهد أحب إلي من مرسلات عطاء بكثير» . وعلل ذلك بقوله : «كان عطاء يأخذ عن كل ضرب» .

وقال أحمد بن حنبل : « ...وليس في المرسلات أضعف من مرسلات الحسن (يعني : البصري) وعطاء ، فإنهما كانا يأخذان عن كل أحد» [(١)] .

إلا أن هذا لا يعني أن العلماء في هذه المرحلة كانوا لا يهتمون بالإسناد ، أو أن الإسناد لم يكن محددا أساسا في قبول الأخبار . فهذا عطاء يقول ـ في إشارة إلى أهمية الإسناد ووجوب التمسك به : «ما اجتمعت عليه الأمة أقوى عندنا من

(١) ينظر سير أعلام النبلاء : ٥/ ٥٥٨ ، وتهذيب التهذيب : ٣/ ١٠٢ ـ ١٠٣ .

الإسناد» [١] .

ولا يعني كذلك أن مجاهدا أجل من عطاء في الحديث . فإنهما إذا لم يكونا في مرتبة واحدة ، فمرتبة عطاء أعلى في الحديث ، كما أن مرتبة مجاهد أسمى في التفسير والقراءة .

وهذا الذهبي يصدر ترجمة عطاء بقوله : «الإمام ، شيخ الإسلام ، مفتي الحرم ...» .

أما قيمته في الفقه فأجل ، ومرتبته فيه أسمى ، كما سنرى .

٢ـ وتعلقا بالميزة السابقة ، يجدر بنا أن نذكر صنيعا آخر ، عرف به بعض محدثي هذه الطبقة من أهل مكة ، أعني التدليس غير القادح في العدالة : فقد روي عن أحمد بن حنبل ما يدل على أن عطاء كان يدلس . قال : « ...ورواية عطاء عن عائشة لا يحتج بها ، إلا أن يقول : سمعت» [٢] .

ولقد نص الترمذي على أن مجاهدا كان «معلوم التدليس» ، وحكم بأن عنعنته «لا تفيد الوصل لوقوع الواسطة بينه وبين ابن عباس» ، قال ابن حجر معقبا على هذا الحكم : «ولم أر من نسبه إلى التدليس . نعم ، إذا ثبت قول ابن معين : إن قول مجاهد «خرج علينا علي» [٣] ليس على ظاهره ، فهو عين

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٩/ ٣٠٦ (في ترجمة عطاء) .

(٢) تهذيب التهذيب : ٣/ ١٠٣ .

(٣) كان ابن حجر قد أضاف إلى ما قاله المزي في تهذيب الكمال أنه قيل لابن معين : «يروى عن مجاهد أنه قال : خرج علينا علي» ، فقال : «ليس هذا بشي» .

التدليس ؛ إذ هو معناه اللغوي ، وهو الإبهام والتغطية» [١] .

غير أن التدليس في هذه الطبقة من المكيين من كبار أصحاب ابن عباس كان قليلا جدا ، حتى إن ابن حجر لم يذكر منهم أي أحد في كتابه «طبقات المدلسين» ، وذكر من أقرانهم من البلدان الأخرى طائفة منهم : طاووس بن كيسان اليماني [٢] .

٣ـ وتبلورت عند هذه الطبقة بعض قضايا علوم الحديث : كنقد المرويات ، وإطلاق مصطلحات خاصة على الحديث تميزه عن الفقه : فقد روى ابن سعد بسنده عن معاذ بن سعيد [٣] الأعور قال : «كنا عند عطاء ، فحدث رجل بحديث ، فاعترضه رجل ، فغضب عطاء ، فقال : ما هذه الأخلاق؟! ما هذه الطباع؟! والله إن الرجل ليحدث بالحديث لأنا أعلم به منه ، ولعسى أن يكون سمعه مني ، فأنصت إليه ، وأريه كأني لم أسمعه قبل ذلك» [٤] .

فمن خلال هذا النص ، نستنتج قضايا حديثية هامة ، منها : انتقاد المرويات ، لأن الظاهر أن الذي حدث بالحديث قد أخطأ فيه ، مما اضطر بعض الطلبة الحاضرين إلى أن يعترض عليه .

وفي النص إشارة إلى مراعاة الأدب في طلب الحديث وروايته ومدارسته ،

---

(١) تهذيب التهذيب : ٤/ ٢٦ .

(٢) ذكر في المرتبة الأولى فيمن لم يوصف بالتدليس إلا نادرا (ص ١٥) .

(٣) ويقال : سعد ـ بدون ياء ـ روى عن عطاء .

(٤) طبقات ابن سعد في ترجمة عطاء : ٤/ ٢٣٤ ، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية : ٩/ ٣٠٧ بلفظ مقارب .

كحسن الإنصات إلى المتكلم وانتظاره حتى يتم حديثه ، والابتعاد في مجلس الدرس الحديثي عن الجدال ، والتزام الأدب قي بيان وهم الواهم وخطأ المخطئ .

وفي النص كذلك إشارة إلى مجلس عطاء . ولعله كان يعقد في المسجد الحرام : فقد نقل ابن كثير عن الطبراني وغيره «أن الحلقة في المسجد الحرام كانت لابن عباس . فلما مات ابن عباس كانت لعطاء بن أبي رباح» [١] .

وتفيدنا الأخبار المتعلقة بمجلسه : أن من كان يشهده لا يتجاوز التسعة [٢] .

وكان عطاء يحرص على أن تسود مجلسه الهيبة والوقار والجد [٣] .

ومن القضايا الحديثية أيضا : إطلاق مصطلحات خاصة يتميز بها الحديث عن غيره : فقد روي ابن سعد بسنده ، عن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أنه قال : «كان عطاء إذا حدث بشيء ، قلت : علم أو رأي؟ فإن كان أثرا قال : علم ، وإن كان رأيا قال : رأي» [٤] .

في هذا النص نرى عطاء يسمى الآثار علما . والمعروف أن العلم في هذه الفترة يطلق في الغالب على الحديث والأثر .

ونستفيد كذلك من النص أن إسناد الأخبار لم يضح تقليدا شائعا وسنة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٩/ ٣٠٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء : ٥/ ٥٥٦ .

(٣) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٣٤ .

(٤) السابق : ٤/ ٢٣٥ .

متبعة لا يعدل عنها ، إذ لو كانت العادة إسناد الأخبار لما احتاج ابن جريج إلى الاستفسار .

٤ـ من مميزات هذه المرحلة أيضا : أن العلماء كانوا يأخذون عمن هم أكبر منهم ، وعن أقرانهم ، وعمن هم أصغر منهم : فعطاء ـ مثلا ـ يروي عن ابن أبي مليكة وعمار بن أبي عمار [١] ، وهما من أقرانه . وروى عن أبي الزبير المكي [٢] وهو من تلاميذه ، وموسى بن أنس [٣] ، وهو أصغر منه . وعبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة حدث عن عمرو بن دينار ، وهو أصغر منه [٤] .

واستمر هذا التقليد العلمي بعد هذه الطبقة . وهكذا نجد سفيان بن عيينة يروي عنه عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح ، وهو من شيوخه [٥] .

(١) أبو عبد الله المكي . تنظر ترجمته في تهذيب التهذيب : ٣/ ٢٠٣ .

(٢) سيأتي الحديث عنه .

(٣) موسى بن أنس بن مالك ، قاضي البصرة . تنظر ترجمته في تهذيب التهذيب : ٤/ ١٧١ .

(٤) سير أعلام النبلاء : ٦/ ١١٣ ، (ترجمة عمرو بن دينار ، رقم ٧٥٨) .

(٥) ينظر تهذيب التهذيب في ترجمة سفيان : ٢/ ٥٩ .

المطلب الثالث
طبقة ثانية

ثم انتقل الحديث إلى طبقة أخرى . من أهم رجالها عمرو بن دينار (ت١٢٦هـ) ، أخذ عن ابن عباس ، وأكثر الأخذ عن كبار أصحابه . وكان ثقة ثبتا حتى إن شعبة لم يكن يقدم عليه أحدا [١] . وهو من العلماء الذين يفخر بهم أهل مكة : إذ هو أحد الرجال الستة الذين تدور عليهم أسانيد الحديث [٢] .

ومنهم أبو الزبير المكي محمد بن مسلم بن تدرس (ت١٢٦هـ) . « ...كان ثقة كثير الحديث ، إلا أن شعبة تركه لشيء زعم أنه رآه فعله في معاملة» [٣] . ذلك أن شعبة رآه يزن ويسترجع في الميزان . قال ابن حبان : «لم ينصف من قدح فيه؛ لأن من استرجع في الوزن لنفسه لم يستحق الترك لأجله» [٤].

ومنهم عبد الله ابن أبي نجيح (ت١٣١هـ) ، نعته ابن سعد بأنه ثقة كثير الحديث [٥] . وعبيد الله ابن أبي يزيد المكي (ت١٢٦هـ) ، أدرك ابن عباس وروى عنه . وكان ثقة كثير الحديث [٦] .

---

(١) السابق : ٣/ ٢٦٨ . ووصفه الذهبي في سيره (٦/ ١١٢) بالإمام الكبير الحافظ .

(٢) ينظر : «الرجال الستة الذين تدور عليهم أسانيد الحديث» للدكتور إبراهيم بن علي آل كليب ، ص : ١٥ وما بعدها ، وكذلك ص : ١٢١ وما بعدها .

(٣) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤٢ ، رقم ١٥٦٩ .

(٤) كتاب الثقات لابن حبان (/) ، وينظر تهذيب التهذيب : ٣/ ٦٩٤ ، وذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب سببا آخر لترك شعبة لأبي الزبير . ينظر في ٣/ ٦٩٥ .

(٥) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤٣ ، رقم ١٥٦٧ .

(٦) السابق : ٤/ ٢٤٢ رقم ١٥٧٠ ، وتهذيب التهذيب : ٣/ ٣١ .

المطلب الرابع

مميزات الدرس الحديثي عند هذه الطبقة :

١ـ من مميزات الدرس الحديثي عند طبقة صغار أصحاب ابن عباس ومن كان معهم من أقرانهم ممن لم يلق ابن عباس : اتساع ظاهرة التدليس : فقد نقل الترمذي عن البخاري قوله : «لم يسمع عمرو بن دينار من ابن عباس حديثه عن عمر في البكاء على الميت» .

قال ابن حجر : «ومقتضى ذلك أن يكون مدلسا» [١] .

وقد أشار الحاكم في علوم الحديث [٢] إلى أنه كان يدلس . وبسبب إشارة الحاكم هذه أورده ابن حجر في طبقات المدلسين [٣] ، غير أن إيراده له في المرتبة الأولى يدل على أن تدليسه نادر .

ووصف بالتدليس أيضا من هذه الطبقة عبد الله بن أبي نجيح ، قال ابن حجر فيه : «أكثر عن مجاهد ، وكان يدلس عنه ، ووصفه بذلك النسائي» [٤] . وأورده في المرتبة الثالثة ، مما يدل على أنه أكثر من التدليس ، فلا يقبل من

---

(١) تهذيب التهذيب : ٣/ ٢٦٩ .

(٢) مطبوع مع كتاب «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» لابن القيم ، ص : ١٥٣ بعنوان «المدخل في أصول الحديث» ، وسماه ابن حجر في طبقات المدلسين «علوم الحديث» .

(٣) طبقات المدلسين ، ص : ١٦ .

(٤) طبقات المدلسين ، ص : ٢٨ .

حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع [١].

ومن الذين أكثروا من التدليس أيضا أبو الزبير المكي . أورده ابن حجر في مرتبة ابن أبي نجيح ، وقال : «من التابعين ، مشهور بالتدليس» [٢] .

٢ ـ وفي هذه المرحلة أضحى الاعتماد على الكتاب تقليدا مقبولا معترفا به [٣] . يقول هشيم [٤] : « سمعت من أبي الزبير ، فأخذ شعبة [٥] كتابي فمزقه » .

ويقول الليث بن سعد المصري : «قدمت مكة ، فجئت أبا الزبير فدفع إلي كتابين ، فانقلبت بهما . ثم قلت في نفسي : لو عاودته ، فسألته : هل سمع هذا كله من جابر؟ فقال : منه ما سمعت ، ومنه ما حدثت عنه . فقلت له : أعلم لي على ما سمعت . فأعلم لي على هذا الذي عندي» [٦] .

---

(١) السابق ، ص : ٧ .

(٢) السابق ، ص : ٣٢ .

(٣) هذا لا يعني أن الناس لم يكونوا يكتبون في عهد ابن عباس . بل العكس من ذلك ، فقد كتب الناس عنه كتبا (ينظر مثلا طبقات ابن سعد : ٥/ ١١ ـ ١٢ في ترجمة سعيد بن جبير ، وسير أعلام النبلاء : ٤/ ٤٥٤ رقم ٢٧٣ ، في ترجمة عبد الله بن عباس) . لكن المقصود أن ذلك في مرحلة صغار أصحاب ابن عباس أصبح تقليدا شائعا .

(٤) هو هشيم بن بشير بن القاسم (١٠٥ ـ ١٨٣هـ) ، من كبار المحدثين . تنظر ترجمته في تهذيب بالتهذيب : ٤/ ٢٨٠ .

(٥) لقد سلف التنبيه على أن شعبة كان سيئ الرأي في أبي الزبير .

(٦) تهذيب التهذيب : ٣/ ٦٩٥ . قلت : ولذلك تجد بعض المحدثين لا يقبل من حديث أبي الزبير عن جابر إلا ما رواه الليث بن سعد .

٣ – وتميز بعض رموز هذه الطبقة بالتقليل من التحديث ليضبط الحديث عنه ويحفظ . أبرز هؤلاء عمرو بن دينار . قال شعبة : «جلست إلى عمرو بن دينار خمس مائة مجلس ، فما حفظت عنه إلا مائة حديث ، في كل خمسة مجالس حديث» [١] .

٤ – وتميز عمرو بن دينار بميزة أخرى كذلك : وهو أنه كان ينهى طلبته عن الكتابة ، خاصة إذا تعلق الأمر برأيه : قال سفيان بن عيينة : «قيل لعمرو بن دينار : إن سفيان يكتب . فاضطجع وبكى ، وقال : أحرج على من يكتب عني» . قال سفيان : «فما كتبت عنه شيئا؛ كنا نحفظ» . وقال عبد الرزاق عن معمر [٢] : سمعت عمرو بن دينار يقول : يسألوننا عن رأينا فنخبرهم ، فيكتبونه ، كأنه نقر في حجر . ولعلنا أن نرجع عنه غدا [٣] .

(١) ينظر الرجال الستة الذين تدور عليهم أسانيد الحديث ، ص : ١٢٢ .

(٢) وهما يمانيان ، كما هو معلوم .

(٣) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤١ ، رقم ١٥٦٨ (ترجمة عمرو) .

المطلب الخامس

طبقة ثالثة

ثم انتقل علم الحديث إلى طبقة أخرى . من رجالها : عثمان بن الأسود الجمحي (ت١٥٠هـ) . كان ثقة كثير الحديث [١] . وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت١٥٠هـ) . وكان أيضا ثقة كثير الحديث جدا [٢] . ولا يضره من تكلم فيه ، وحديثه عند الجماعة [٣] . بل هو أجل أفراد هذه الطبقة . وزكرياء بن إسحاق المكي؛ وكان ثقة كثير الحديث كذلك . إلا أنه قد نسي في آخر عمره [٤] . وسيف بن سليمان (أو ابن أبي سلميان) توفي بمكة بعد سنة خمسين ومائة . وكان هو الآخر ثقة كثير الحديث [٥] .

(١) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤٧ ، رقم الترجمة ١٦١٣ .

(٢) ينظر : طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤٨ رقم ١٦١٦ .

(٣) ينظر : تهذيب التهذيب : ٢/ ٦١٦ .

(٤) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤٨ رقم ١٦١٨ ، وتهذيب التهذيب : ١/ ٦٣١ .

(٥) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤٨ رقم ١٦٢٠ .

المطلب السادس

مميزات الحديث في هذه المرحلة

١ ـ يستفاد مما نقله لنا أهل الأخبار أن طالب العلم في هذه الطبقة كان يلزم الشيخ مدة من الزمن ، قد تطول وقد تقصر ، حتى إذا فرغ منه انتقل إلى شيخ آخر : يقول عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج : «لزمت عطاء سبع عشرة سنة» [(١)].

وفي رواية : «لم يغلبني على يسار عطاء عشرين سنة أحد» ، فقيل له : «فما منعك عن يمينه؟» ، قال : كانت قريش تغلبني عليه» [(٢)] ، ويقول أيضا : «جالست عمرو بن دينار ، بعدما فرغت من عطاء ، تسع سنين» .

فهذا يدل على أن طالب العلم أضحى يجعل لنفسه نظاما ثابتا في التحصيل . أي أن طلب العلم أصبح «مهنة» يحترفها الإنسان جزءا كبيرا من شبابه . فهذا ابن جريج قد أنفق ـ من خلال النصوص السابقة ـ بضعا وعشرين سنة في طلب العلم .

٢ – وفي هذه الطبقة تبلورت معالم طرق التحمل والأداء واضحة : فقد سئل ابن جريج عن قراءة الحديث على المحدث ، فقال : « إنما اختلف الناس في الصحيفة ، يأخذها (الرجل) ويقول : أحدث بما فيها ، ولم يقرأها . فأما إذا

---

(١) تهذيب التهذيب : ٢/ ٦١٦ . ويقارن بما في سير أعلام النبلاء: ٥/ ٥٥٨ ، رقم ٦٤٣ في ترجمة عطاء .

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ، ص : ٦٦ .

قرأها فهو سواء» [١] .

فهذا النص يفيد أن ابن جريج يجعل القراءة على الشيخ ، والسماع منه في درجة واحدة ، ولا يفاضل بينهما .

والجمهور على أن السماع من لفظ الشيخ [٢] أرفع من القراءة على الشيخ [٣] . وروي عن أبي حنيفة ومالك ترجيح القراءة على الشيخ على السماع من لفظه ، وروي عن مالك أيضا وغيره أنهما سواء . وقد قيل إن التسوية بينهما مذهب معظم علماء الحجاز والكوفة ، ومذهب مالك وأصحابه وأشياخه من علماء المدينة ، ومذهب البخاري وغيرهم ، قال ابن الصلاح : «والصحيح : ترجيح السماع من لفظ الشيخ ، والحكم بأن القراءة عليه مرتبة ثانية ...» [٤] .

ونقل عن يحيى بن سعيد القطان أن ابن جريج كان يعبر عن السماع من الشيخ بعبارة «حدثني» وعن القراءة عليه بعبارة «أخبرني» . أما إذا استعمل لفظ «قال» فهو عند ابن القطان «شبح الريح» [٥] . أي أنه لا يفيد الاتصال ، لأن ابن جريج معروف بالتدليس ، كما سنرى ، إن شاء الله . ولذلك قال أحمد بن حنبل : «إذا قال ابن جريج : «قال فلان» ، و»قال فلان» ، و»أخبرت» ،

---

(١) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤٧ رقم ١٦١٦ .

(٢) أقصد سماع الحديث . وأما القرآن فالأمر فيه مختلف في نظري .

(٣) ينظر معرفة علوم الحديث لابن الصلاح ، ص : ١١٨ .

(٤) السابق ، ص : ١٢٢ .

(٥) ينظر تهذيب التهذيب : ٢/ ٦١٧ (ترجمة عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج) .

جاء بمناكير ، وإذا قال : «أخبرني» ، و«سمعت» ، فحسبك به» [١] .

إلا أن لابن جريج اصطلاحا خاصا في التحديث عن شيخه عطاء بن أبي رباح : يروي يحيى القطان عنه قوله : إذا قلت «قال عطاء» ، فأنا سمعته منه ، وإن لم أقل «سمعت» .

وذلك ـ والله أعلم ـ للزومه مجلس عطاء سنين طويلة . ويفهم منه أيضا أن الآخذين عن ابن جريج كانوا يتوقفون عندما كان يستعمل لفظ «قال» ، فطمأنهم أنه إذا استعمل هذا اللفظ بخصوص عطاء شيخه ، فهو محمول على السماع وإن لم يقل «سمعت» .

وكذلك لابن جريج اصطلاح خاص في التحديث بالرواية عن عطاء الخراساني [٢] : فقد سأل علي المديني يحيى القطان عن حديث ابن جريج عن عطاء الخراساني فقال : «ضعيف» . قال ابن المديني ليحيى : إنه يقول : «أخبرني»! قال : «لا شيء ، كله ضعيف ، إنما هو كتاب دفعه إليه» [٣] .

وهذا يدل على أن ابن جريج كان أحيانا يعبر عن تحمل الحديث مناولة بعبارة «أخبرني» . قال ابن حجر : «وكان ابن جريج يستجيز إطلاق «أخبرنا» في المناولة والمكاتبة» [٤] .

---

(١) السابق .

(٢) هو عطاء بن أبي مسلم الخراساني ، نزيل الشام (ت١٣٥هـ) . ينظر : تهذيب التهذيب : ٣/ ١٠٨ .

(٣) فتح الباري : ٩/ ٦٧٠ (عند شرحه لسورة نوح من كتاب التفسير من صحح البخاري ح٤٩٢٠) ، وتهذيب التهذيب : ٣/ ١٠٨ .

(٤) فتح الباري : ٩/ ٦٧٠ .

وإطلاق عبارة «أخبرنا» في المناولة والمكاتبة ، وما شاكلهما : هو مذهب جماعة من العلماء [١] .

٢ – وشاعت عن هذه الطبقة أيضا أنواع أخرى من طرق التحمل غير القراءة على الشيخ والسماع منه وهي الإجازة [٢] ، والمناولة [٣] ، والمكاتبة [٤] : فقد سبق أن رأينا أن عطاء الخراساني دفع كتابه إلى ابن جريج ، ولم يسمع منه شيئا ، ولا قرأ عليه شيئا ، مما يحدث به عنه . وسبق قول ابن جريج : «إنما اختلف الناس في الصحيفة يأخذها (الرجل) ويقول : أحدث بما فيها ، ولم يقرأها ...» .

وفي النص أيضا إشارة إلى أنه كان هناك نقاش بين العلماء واختلاف في هذا النوع من التحمل . ولو لم يكن ذلك حاصلا لما احتاجوا إلى أن يختلفوا .

وأتى ابن المبارك زكريا بن إسحاق المكي ـ وكان قد نسي ـ فأخرج إليه

---

(١) ينظر معرفة علوم الحديث لابن الصلاح ، ص : ١٥٠ ـ ١٥١ و١٥٥ .

(٢) الإجازة لها صور أعلاها : أن يقول الشيخ للطالب : أجزت لك الكتاب الفلاني ، وهو من مروياتي ، أو ما اشتملت عليه فهرستي هذه . ينظر التفصيل في «معرفة علوم الحديث» لابن الصلاح ، ص : ١٣٤ ـ ١٤٤ .

(٣) من صور المناولة أن يدفع الشيخ إلى الطالب أصل سماعه ، أو نسخة مقابلة به ، ويقول : هذا سماعي ، أو روايتي عن فلان فاروه عني . ينظر معرفة علوم الحديث ، ص : ١٤٦ ـ ١٤٩

(٤) **المكاتبة** : هي أن يكتب الشيخ إلى الطالب وهو غائب شيئا من حديثه بخطه أو يكتب له ذلك وهو حاضر ، أو يأمر غيره بأن يكتب له ذلك عنه . ينظر معرفة علوم الحديث لابن الصلاح ، ص: ١٥٣ ـ ١٥٥ .

كتابه [١] .

٣ ـ ومن مميزات الحركة الحديثية في هذه المرحلة اتساع ظاهرة التكلم في الرجال [٢] وانتقاد الشيوخ وإن كانوا من الأكابر : فقد قال ابن المديني : إن قيس بن سعد وابن جريج قد تركا الأخذ عن عطاء في آخر حياته [٣] . وعندما سئل قيس بن سعد : لم تركت مجالسة عطاء؟ قال : «إنه نسي ، أو تغير [٤] ، فكدت أن أفسد سماعي منه» [٥] .

غير أن الذهبي قال بخصوص هذه المسألة : «لم يعنِ علي (يعين ابن المديني) بقوله : «تركه هذان» : الترك العرفي ، ولكنه كبر ، وضعفت حواسه ، وكانا قد تكفيا منه [وأكثرا] عنه ، فبطلا (أي بطلا الكتابه عنه) . فهذا مراده بقوله : تركاه» [٦] . ولفظه في ميزان الاعتدال [٧] : «لم يعن (أي علي ابن المديني) الترك الاصطلاحي ، بل عنى أنهما بطلا الكتابة عنه . وإلا فعطاء ثبت رضي» .

وكان سفيان بن عيينة يضعف أبا الزبير المكي [٨] .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤٨ رقم ١٦١٨ (ترجمة زكرياء) .

(٢) ينظر : طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤٥ ، وتهذيب التهذيب : ٣/ ٢٤٧ ، في ترجمة عمر بن قيس المكي ، المعروف بسندل .

(٣) قد عاش عطاء أكثر من تسعين سنة .

(٤) الظاهر أن الشك من الراوي .

(٥) تهذيب التهذيب : ٣/ ١٠٣ .

(٦) سير أعلام النبلاء : ٥/ ٥٥٨ .

(٧) ٣/ ٧٠ ، في ترجمة عطاء رقم ٥٦٤٠ .

(٨) تهذيب التهذيب : ٣/ ٦٩٤ في ترجمة أبي الزبير .

وكان بعض الناس ، مع ذلك ، لا يرى بأسا من الأخذ عن الشيخ وإن نسي ، إذا كان ضابطا لكتابه ، حافظا له من التبديل والتحريف . فهذا عبد الرزاق (الصنعاني) يقول : «قال لي أبي [١] : اِلزم زكرياء بن إسحاق ، فإني قد رأيته عند ابن أبي نجيح بمكان . قال : فأتيته ، فإذا هو قد نسي؛ وقد كان نزل البادية . فبلغني أن ابن المبارك أتاه ، فأخرج إليه كتابه [٢] .

٤ – إلا أن أهم ميزة تميزت بها حركة الحديث عند هذه الطبقة هي تدوين الكتب وتصنيفها على الأبواب . وقال أحمد بن حنبل فيما رواه عنه ابنه عبد الله : «أول من صنف الكتب : ابن جريج وابن أبي عروبة» [٣] .

وروى سفيان بن عيينة عن ابن جريج قوله : « ما دون العلم تدويني أحد » [٤] .

وقد يفخر أهل مكة بأن علم الرجال الستة [٥] الذين تدور عليهم أسانيد

---

(١) أبوه هو همام بن نافع الحميري ، مولاهم ، اليماني ، الصنعاني ، روى عن عكرمة وغيره ، ينظر تهذيب التهذيب : ٤/ ٢٨٤ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤٨ رقم ١٦١٨ .

(٣) تهذيب التهذيب : ٢/ ٦٩٤ وابن أبي عروبة هو سعيد بن أبي عروبة مهران ، أبو النضر البصري ، كان ثقة كثير الحديث ، إلا أنه اختلط في آخر عمره . وأرخ ابن حبان موته في سنة ١٥٥هـ ، وقال : «وبقي في اختلاطه خمس سنين» . ومن العلماء من يقول : دام اختلاطه أكثر من ذلك؛ كما اختلف أيضا في تاريخ وفاته . ينظر تهذيب التهذيب : ٢/ ٣٤ ، وسير أعلام النبلاء : ٧/ ٣ رقم ١٠٠١ ، ترجمة ابن أبي عروبة .

(٤) تهذيب التهذيب : ٢/ ٦١٦ .

(٥) وهم : عمرو بن دينار ، وابن شهاب الزهري ، وأبو إسحاق السبيعي الكوفي ، وسليمان بن مهران الأعمش ، ويحيى بن أبي كثير البصري ، وقتادة البصري . ينظر : الرجال الستة الذين تدور عليهم أسانيد الأحاديث ، ص : ١٥ .

الأحاديث صار إلى من صنف في العلم ، منهم ابن جريج وابن عيينة [١] .

ومن الكتب التي تسمى لابن جريج كتاب «السنن» . قال سزكين : «لم نعثر عليه ، وتوجد من أحاديثه : مجموعة بتهذيب أبي عبد الله محمد بن مخلد بن حفص (المتوفى سنة ٣٣١هـ) بعنوان «ما رواه الأكابر عن مالك بن أنس ، ويحيى الأنصاري ، وابن جريج» ، الظاهرية ... وأحاديثه موجودة أيضا في الظاهرية ، مجموع ٢٤ ...» [٢] .

(١) والآخرون هم : سعيد بن أبي عروبة ، وشعبة بن الحجاج ، ومعمر بن راشد ، وحماد بن سلمة ، وجرير بن حازم ، وهشام الدستوائي ، والثوري ، وإسرائيل ، ومحمد بن إسحاق ، ومالك . ينظر الرجال الستة ، ص : ١٥ .

(٢) تاريخ التراث العربي (١/ ١/ ١٦٧) (في علوم القرآن والحديث) ، وينظر كشف الظنون : ١/ ١٠٠٨ ، ومعجم المؤلفين : ٦/ ١٨٣ .

المطلب السابع

طبقة رابعة

من أبرز رجال هذه الطبقة داود بن عبد الرحمن العطار (ت١٧٤هـ) ، وكان ثقة كثير الحديث [١] . ومسلم بن خالد الزنجي (ت١٨٠هـ) ، وكان كثير الحديث إلا أنه كان «كثير الغلط والخطأ في حديثه» [٢] ، وذكره ابن حبان في الثقات [٣] . واحتج به الشافعي ، روى عنه كثيرا من الأحاديث ، أودعها في كتابه «الأم» وغيره . وكانت له حلقة أيام ابن جريج .

ومن هذه الطبقة أيضا سفيان بن عيينة (ت١٩٨هـ) ، كان إماما . وسعيد بن سالم القداح ، وتُكلم فيه بسبب القول بالإرجاء [٤] . وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد (ت٢٠٦هـ) ، كان أعلمهم بابن جريج [٥] ، وكان ثقة مع غلو في الإرجاء [٦] . وعبد الله بن الحارث المخزومي ، وكان من الأثبات [٧] . ويحيى بن سليم الطائفي (ت١٩٣هـ) ، سكن مكة ... وكان ثقة كثير الحديث ،

---

(١) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٥١ ، رقم ١٦٣٧ . وينظر تهذيب التهذيب : ١/ ٥٦٦ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٥١ رقم الترجمة ١٦٣٨ .

(٣) كتاب الثقات : ٤/ ٢٨٠ رقم الترجمة ٤٣٩٨ .

(٤) الجرح والتعديل : ٢/ ٤/ ٣١ .

(٥) توالي التأنيس ، ص : ٧٢ .

(٦) ومنهم من ضعفه . ينظر تهذيب التهذيب : ٢/ ٦٠٦ .

(٧) توالي التأنيس ، ص : ٧٢ .

ولم يحمده بعض النقاد [١] . والفضيل بن عياض (ت١٨٧هـ) ، «كان ثقة ، ثبتا ، فاضلا ، عابدا ، ورعا ، كثير الحديث» [٢] . وأبو عمران عبد الله بن رجاء المكي . كان ثقة كثير الحديث ، وهو «من أهل البصرة ، فانتقل فنزل مكة ، إلى أن مات بها» [٣] .

(١) طبقات ابن سعد : ١/ ٢٥١ رقم ١٦٤١ ، وتهذيب التهذيب : ٤/ ٣٦٢ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٥٢ رقم ١٦٤٢ .

(٣) السابق : ٤/ ٢٥٢ رقم ١٦٤٣ .

المطلب الثامن

مميزات حركة الحديث في هذه الطبقة

أهم ما لاحظته وأنا أدرس هذه الطبقة أربعة أمور :

١ – **الأمر الأول** : أن أهل هذه الطبقة فحُشت فيهم البدعة ، خاصة بدعة الإرجاء . وسأفرد لذلك فقرة خاصة إن شاء الله .

٢ – **الأمر الثاني** : أن تباعد العهد بين المحدث ومخرج الحديث (الصحابي) جعله يحرص على طلب علو السند ، وأحسن ما أمثل به في هذا الصدد قول سفيان بن عيينة : «قلت لعبيد الله بن أبي يزيد (ت١٢٦هـ) : مع من كنت تدخل على ابن عباس؟ قال : مع عطاء والعامة . وكان طاووس [١] يدخل مع الخاصة ...» . ثم قال سفيان : «وكان ابن جريج قبل أن ألقاه [٢] يحدثنا عنه ، فنسأله عنه ، فيقول : «هذا شيخ قديم» : يوهمنا أنه قد مات . فبينما أنا ذات يوم على باب دار بمكة في حاجة لي ، إذ سمعت رجلا يقول : ادخل بنا على عبيد الله بن أبي يزيد . فقلت : من عبيد الله ابن أبي يزيد؟ قال : شيخ في هذه الدار لقي ابن عباس . ولكنه قد ضعف حتى لا يقدر على الخروج . قلت : أفأدخل معكم عليه؟ قالوا : نعم ... فدخلنا فجعلوا يسألونه ويحدثهم . فقلت : ألقي

---

(١) يقصد طاووس بن كيسان اليماني . وقد حج ما يقرب من أربعين حجة . ولعله كان يجلس إلى ابن عباس مع الخاصة أيام الحج .

(٢) الضمير يعود على عبيد الله ابن أبي زيد .

عليه ما حدثنا به ابن جريج عنه ، فجعل يحدثني بها . فسمعت منه يومئذ أحاديث . ثم أتيت ابن جريج فجلست إليه . وأنشأ يحدث ... إلى أن قال : حدثني عبيد الله ابن أبي يزيد بكذا وكذا . فقلت : حدثني به عبيد الله ـ يعني ابن أبي زيد ـ فقال : قد وقعت عليه؟ . قال سفيان : ثم لم أزل أختلف إليه حتى مات» [(١)] .

٣ - **الأمر الثالث** : أن تدوين الكتب الذي بدأ مع ابن جريج تواصل مع سفيان بن عيينة [(٢)] . ولقد حفظ لنا الشافعي من كتبه في الحديث ما يتعلق بالأحكام .

٤ - **الأمر الرابع** : أن حلقات الدرس كثرت واتسعت . وأنشأ الطلبة يقبلون على رواية الحديث في سن مبكرة : فسفيان جلس لطلب الحديث وهو ابن خمس عشرة سنة . قال : «أول من جالست : عبد الكريم أبو أمية [(٣)] ؛ جالسته وأنا ابن خمس عشرة سنة؛ ومات في سنة ست وعشرين ومائة» [(٤)] .

(١) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٤٢ في ترجمة عبيد الله بن أبي زيد ، رقم ١٥٧٠ .

(٢) ينظر : تاريخ التراث العربي : ١/ ١/ ١٦٧ (في علوم القرآن والحديث) .

(٣) هو عبد الكريم بن أبي المخارق ، بصري نزل مكة . ضعيف . ينظر : تهذيب التهذيب : ٢/ ٦٠٣ .

(٤) طبقات ابن سعد : ٤/ ٢٥٠ ، رقم ١٦٣٦ .

المطلب التاسع

الإمام الشافعي

لقد ورث الإمام الشافعي علم أهل مكة؛ وذلك قبل أن يرحل إلى الإمام مالك بالمدينة . ومرويات سفيان بن عيينة في «الأم» تزاحم مرويات الإمام مالك . أما ابن جريج فحظ مروياته في «الأم» لا بأس به . وأكثر ما يرويه الشافعي عن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي داود؛ ثم مسلم بن خالد الزنجي ... ومرات نقرأ للشافعي في الأم : «أخبرنا مسلم وعبد المجيد عن ابن جريج» [(١)] .

واتضحت مع الشافعي معالم مصطلح الحديث : فنجد كلاما للشافعي عن الحديث المرسل ، وشروط الاحتجاج به . وخصص حيزا من كتابه «الرسالة» للكلام عن شروط الحديث الصحيح [(٢)] . وكان يعبر عن خبر الواحد بعبارة «خبر الخاصة» ، وكان يعبر عن سنة رسول الله ﷺ بلفظ «السنة» ، أو «الحديث» أو «الخبر» . وكان يسمي قول الصحابي «أثرا» .

كما نجد عنده مصطلح «المتصل» [(٣)] ، و«المنقطع» ، و«المرسل» ، و«مخرج الحديث» ، و«التابعي» [(٤)] .

---

(١) ينظر : ـ مثلا ـ المسند في الأم : ٨/ ٥٤٤ .

(٢) ينظر : الرسالة ص : ٣٧٠ ـ ٣٧١ ف ١٠٠٠ وما بعدها .

(٣) يعني «المتصل» . ينظر الرسالة ص : ٤٦٤ ف ١٢٧٥ .

(٤) ينظر : الرسالة ، ص : ٤٦١ ـ ٤٦٥ ف ١٢٦٢ وما بعدها .

بكلمة جامعة : يعد الشافعي ـ بحق ـ من أوائل المؤسسين لعلم مصطلح الحديث ، ومن الأوائل الذين تكلموا عنه بصيغة «تجريدية» ، «تنظيرية» .

فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .